الوصايا (المفهوم ، ونماذج من هذا الفن)

تمهيد :

الوصية حاجة اجتماعية وإنسانية عامة مارسها العربي منذ أقدم عصور وجوده فقد جبل على أن يكون كائنا اجتماعيا يعيش في كنف أسرة تربط أفرادها علاقات مختلفة تنظمها عواطف إنسانية ما يجعله يسعى إلى محاولة استنقاذ أولئك المقربين إليه من مخاطر الوقوع في وخيم العواقب الحياتية جراء نقص الخبرة والممارسة والتورط في كثير من الحالات المندمة ولتجنيب أولئك الأحبة النتائج السلبية يعمل من يشعر بالمسؤولية اتجاههم بتقديم خلاصة تجاربه وعصارة مكتسباته وخبراته ليعبر بعم إلى بر الأمان ويهديهم الطريق السليم والنهج القويم التي ارتضاه لهم بعد أن عارك الأيام وجرب منها كل ما عاناه واستخلص منها ما يجنب أحبته وعثاء مهالك الدنيا ومطباتها.

تعريف الوصية:

الوصية لغة: من وصى كوعى خس بعد رفعة واتزن بعد خفة واتصل ووصل الأرض وصيا ووصيا ووصاء ووصاءة اتصل نباتها

«والاسم الوصاة والوصاية والوصية وهو الموصى به يويكم الله أي يفرض عليكم وقوله أتواصوا به أي أوصى أولهم آخرهم

والوصاة والوصية جريدة النخل يحزم بها ووصى ووصي ويوصي طائر» [1]

وورد في لسان العرب أن وصي أوصى الرجل ووصاه عهد إليه

(1).الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تح: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1 ، 1997، مادة (و ص ي)..

اصطلاحا:

مثلما تنوع مدلول استخدام اللفظة في شكلها اللغوي كان لها نصيب في الاستخدام اللساني العربي فحيز استخدامها يعطيها المعنى المستقل فهي عند الفقهاء «تمليك بعد الموت» [1]، أو «عهد خاص مضاف إلى ما بعد الموت» [2]، وهي عند الأدباء «نوع من الأدب غايته التوجيه والإرشاد والحث على اكتساب المحامد أو التبصير بحسن السياسة أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق» [3]

الوصايا الأدبية هي جسر يربط بين السلف والخلف وذلك لما يمد الأول الثاني من خبرة وتجربة في الحياة وطريقة الإقبال عليها وهذا نتيجة لما واجه الموصي في حياته من اليسر والعسر حيث تكون «خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونه وشجونه وآخر ما يقدمه إلى أبنائه وذويه في حياته أو بنهايتها بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومر» [4]

والتواصل بين الموصي والموصى إليه لن يكون إلا عن طريق النصح والإرشاد والوعظ وذلك بالدعوة إلى الاستفادة من تجارب الحياة والتحريض على الاقتداء بها

وهي بهذا تسهم في بناء مجتمع راق ولأن صلاح المجتمع بصلاح الفرد نشط السلف في تقديم خلاصة تجاربهم لصلاح خلفهم فالوصية «لون من ألوان النقد الاجتماعي التي يسعى من خلالها الموصي إلى إبعاد المجتمع عن حياة الرذيلة إلى حياة

(1).ابن عابدين، حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار فقه أبي حنيفة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 2000، م8 ، ص 177.

(2).مهدي بن علي الشوكاني، نيل الأوطار: شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد المختار، دار الحديث، القاهرة، مصر، دط، م5 ، ص33.

(3).لطيف محمد العكام، أساليب النثر الفني، مطبعة الآداب، النجف، العراق، دط، 1974، ص105.

(4).حسن الحاج حسن، أدب العرب في الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1997 ، ص271..

الفضيلة وإعطاء صورة للنموذج الإنساني لما تحمله من قيم ومبادئ أخلاقية سامية ودلالات نفسية وفكرية» [1]

نشأة وتطور فن الوصية:

مسار الوصية في تاريخ البشر قديم ولعل تولدها يعود إلى لحظة رمي الخوف على الأبناء في روع الآباء فهو إحساس قسري لا تحدثه رغبة مفتعلة أو مجاملة شخصية كاذبة لذلك يزعم الدارسون أن هناك وصايا رويت عن آدم لبنيه حين حضرته الموت ويؤكد القرآن وجود وصايا لنبي الله نوح عليه السلام لابنه، وأيا كان فحوى الوصايا أو نسبة صحة بعضها فهي باتت من التراث الإنساني الذي يحمل القيم الايجابية المقومة للسلوك الفردي والجماعي.

والوصية تصدر في الغالب من الكبير الذي مارس الحياة وخبر أسرارها فتكون من الأب أو الأم أو العم والخال أو ممن هم أهل لذلك بحكم سن الموصي كوصية لقمان لابنه المثبتة في القرآن الكريم وقد تأخذ توجها آخر إن كانت في سياق الدعوة والتوجيه فقد يكون الموصي أقل سنا من الموصين كوصية نبي الله ابراهيم لأبيه آزر يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا فقد أوصى الأنبياء والمرسلون ما كلفوا به من المولى عز وجل كثيرا من الوصايا كان قد تناقلها الكهنة والأحبار والرهبان والرجال والنساء عبر أزمان مختلفة اختتمت بالرسالة المحمدية المجيدة .

وما هو متداول من عديد الوصايا المؤرخة في العصر الجاهلي وما بعده تؤكد نشاط السلف في توجيه الخلف وارتقاء ذوق الموصين في تعبيد طريق أبنائهم وجهة الصلاح والفلاح وحرصوا على تقديم تلك الدرر ملفوفة في لحاف من الكلمات الأصلية المبدعة

(1).روناك توفيق علي النورسي، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007..

موشاة ببديع البلاغة وجمال الوقع وحسن السبك والتركيب فغدت بعد ذلك مادة أدبية وقطعة فنية سحرت ألباب الدارسين بإبداعها.

ومما لا شك فيه أن العرب الجاهليين عرفوا الكتب السماوية السابقة وتناقلوا مضامينها ثم إن الشعوب والحضارات كانت تحتفل بالحكمة والحكماء وأصحاب الرأي والكهنة والسحرة والمنجمين فكانوا يلجؤون إليهم إن استعصى عليهم أمرا وأولئك النفر كانوا يقدمون النصائح والوصايا للناس

ولا يقف أمر الوصية عل شخص أو فئة معينة بل لقد رأى كل من له الرغبة في الوصية على ممارستها فقد أوصى الملوك والأمراء حاشيتهم أو رعاياهم بما يرون من ضرورة الالتزام به من تعاملات وسلوكيات تجعلهم في أرفع مكانة في نظر من يباشرون معهم التعامل وقد نقلت كتب التأريخ العربي عددا كبيرا من الوصايا التي تداولتها الألسن عبر مسار الفترة الجاهلية خاصة تحمل من فيوض الخبرة والنصح ما يبث في متلقيهم الاقتناع ويعلمهم شؤون الحياة وتصاريفها وقد تمتد إلى غيرهم ممن يرغب في الصلاح من خلال الاطلاع على فحواها ومن أشهر وصايا الجاهليين ما ينسب إلى قحطان بن هود يوصي أولاده قائلا: «أوصيكم بذي الرحم خيرا وإياكم والحسد فإنه داعية إلى القطيعة فيما بينكم وأخوكم يعرب أميني وخليفتي فيكم فأسمعوا له وأطيعوا أمره وأحفظوا وصيتي واعملوا بها واثبتوا عليها ترشدوا» [1].

ووقف أكثم بن صيفي بين يدي كسرى موصيا يقول: «إن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكهم وأفضل الملوك أعمها نفعا وخير الأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها والصدق منجاة والكذب مهواة والشر لجاجة والحزم مركب صعب والعجز مركب

(1)دعبل بن علي الخزاعي، وصايا الملوك من ولد قحطان بن هود، تح نزار أباظة، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص26.

وطيء آفة الرأي الهوى والعجز مفتاح الفقر وخير الأمور الصبر وحسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة أصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء شر البلاد بلاد لا أمير بها شر الملوك من خافه البريء المرء يعجز لا محالة أفضل الأولاد البررة خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة أحق الجنود من حسنت سريرته يكفيك من الزاد ما بلغك المحل حسبك من شر سماعه الصمت حكمة وقليل فاعله» [1].

ووصى قيس بن عاصم المنقري بنيه بما يكفل لهم وضوح الصورة المستقبلية أمامهم فقال: «يا بني أحفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، إذا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم، فيسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة النفس فإنها شر كسب المرء » [2]

قال أكثم بن صيفي: «قد حلبت الدهر أشطره فعرفت حلوه ومره عين عرفت فذرفت إن أمامي ما لا أسامي رب سامع بخبري لم يسمع بعذري كل زمان لمن فيه في كل يوم ما يكره كل ذي نصرة سيخذل تباروا فإن البر ينمي عليه العدد كفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين كفيه إن قول الحق لم يدع لي صديقا الصدق منجاة لا ينفع مع الجزع التبقي ولا ينفع مما واقع التوقي ستساق إلى ما أنت لاق حيلة من لا حيلة له الصبر كونوا جميعا فإن الجمع غالب تثبتوا ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين الركين رب عجلة تهب ريثا... » [3]

(1).احمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ج1، ص122.

(2).زكريا صيام، دراسات في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1984، ص210.

(3).أبو هلال العسكري، جمهرة الامثال، المؤسسة العربية الحديثة للنشر، ج1، 1964 ، ص 393 . 395.

ومن تلك الوصايا ما أوصى به مالك بن المنذر البجلي أبناءه قوله: «يا بني كونوا جميعا ولا تفرقوا فتكونوا شيعا فإن موتا في عز خير من حياة في ذل وعجز وكل ما هو كائن كائن وكل جمع إلى تباين الدهر صرفان فصرف رخاء وصرف بلاء واليوم يومان فيوم حبرة ويوم عبرة والناس رجلان رجل معك ورجل عليك» [1].

وقد أوصى عمرو بن الغوث بن طيء ولده، وأوصى قيس بن معد يكرب ولده أيضا

ولم تقصر الوصايا على الرجال فقد أوصت النساء بناتهن وقد نهلن من محصول خبراتهن فتلك أمامة بنت الحارث أوصت ابنتها يوم كان حملها إلى ليت زوجها قائلة: «أي بنيتي إن الوصية لو تركت لعقل أو أدب أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك ولزويته عنك ولكن الوصية تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل أي بنية إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس عن الزوج ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال، أي بنية فارقت الحواء الذي منه خرجت والوكر الذي منه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فأصبح بملكه عليك ملكا فكوني له أمة يكن لك عبدا وأحفظي عني خلالا عشرا تكن لك دركا وذكرا فأما الأولى والثانية فالمعاشرة له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة فإن في القناعة راحة القلب وحسن السمع والطاعة رأفة القلب وأما الثالثة والرابعة فلا تقع عيناه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح وأعلمي أي بنية أن الماء أطيب الطيب المقود وأن الكحل أحسن الحسن الموجود ... » [2]

وهكذا تواصل سلسلة الوصايا المحددة سلوكيات الزوجة وترسم لها سر السعادة الزوجية بيسر وإقناع وذلك بإبراز نتائج الوقوف عند الوصايا وآليات تحقيقها ولو بأيسر

(1)ابو حاتم السجستاني، المعمرون والوصايا، تح عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1961، ص122.

(2).أبو حاتم السجستاني، المعمرون والوصايا، تح عبد المنعم عامر، ص119.

تلك الوسائل التي قد تغفر البنت عن حقيقة أمرها وطبيعة استخدامها وهي كذلك وشوشة في أذن كل عروس في كل زمان ومكان وهبتها أمامة جانبا من حبها وهامشا من اهتمام الأم إن قامت الحقيقية بدورها أو أغفلته بالانشغال بغير هذا الأمر من الأعمال.

وقد كان من أمر الوصايا وأهميتها إن استوت على ألسن حكماء الشعر ولاكت أقوالهم وصايا ونصائح تيسر لهم الجهر بها وأبانت على براعة لغوية وتمكن إبداعي بالإضافة إلى ما جملت من شخصيتهم وعظمت من أمرهم في نظر السامعين والقارئين.

ومن أحسن الوصايا الشعرية في العصر الجاهلي وصية عمرو بن الأهتم يقول:

لقد أوصيت ربعي بن عمرو إذا حزبت عشيرتك الأمور
بأن لا تفسدن ما قد سعينا وحفظ السورة العليا كبير
وإن المجد أوله وعور ومصدر غيه كرم وخير
وإنك لن تنال المجد حتى تجود بما يضن به الضمير
بنفسك أو بمالك في أمور يهاب ركوبها الورع الدثور
وجاري لا تهينَنْهُ وضيفي إذا أمسى وراء البيت كور
يؤوب إليك أشعث جرفته عوان لا يُنَهْنِهُهَا الفتور
أصبه بالكرامة واحتفظه عليك فإن منطقه يسير
وإن من الصديق عليك ضغنا بدا لي إنني رجل بصير
بأدواء الرجاء إذا التقينا وما تخفي من الحسك الصدور[1]

الصدور[1]

وقد اشتملت عينية لقيط بن يعمر الإيادي في تحذير قومه إياد على درر سندسية من وصايا محب خائف على أمر أهله منها قوله:

(1).المفضل الضبي، المفضليات، تح: قصي الحسين، دار الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص230.

ولا يدعْ بعضُكم بعضاً لنائبةٍ كما تركتم بأعلى بيشةَ النخعا
هيهات لا مالَ من زرع ولا إبلٍ يُرجى لغابركم إن أنفكم جُدِعا
لا تثمروا المالَ للأعداء إنهم إن يظفروا يحتووكم والتّلاد معا
والله ما انفكت الأموال مذ أبدُ لأهلها أن أصيبوا مرةً تبعا
يا قومُ إنَّ لكم من عزّ أوّلكم إرثاً، قد أشفقت أن يُودي فينقطعا
يا قومُ لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُراً على نسائكم كسرى وما جمعا

كما قدم زهير بن أبي سلمى في معلقته خلاصة معاينة للحياة دامت ثمانين حول صبها في جملة من روائع القول وجميل المعاني وحسن وقع في النفس، وإذا استرسلنا في مظاهره تقديس الجاهليين للوصية سنقع على إرث لا يمكن الوقوف عند نهايته ولا تحديد كامل قيمته في هذه المحاضرة .

الوصية في العصر الإسلامي:

وببلوغ الناس زمن الإسلام واستنارة عقولهم بمصابيح هدي القرآن والسنة المشرفة تحولت الوصية إلى حضن دافيء من المشاعر والقناعات وأساسيات تتخذ من الصفاء منهجا أوضح وأنقى في النصح والتوجيه، لتأخذ أبعادا أوسع ومفاهيم أعمق وتوجهات تعاملية متفرعة قد اتخذ من خلالها المصطلح توظيفات متنوعة جاء معظمها في القرآن الكريم والحديث الشريف ووقف عل تحقيقها في ارض الواقع الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين في شكل ممارسات شرعية وتوجيهات أخلاقية أسهم في ترسيخ مبادئ الدين وإرساء دعائم التعامل فيه ومن بين ما جاء من مفاهيمها القرآنية قوله تعالى قال ﴿قَالَ إِنِّي

عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32)﴾(*)

وقوله ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)﴾(**)

ومن السنة المشرفة ما وصى به الرسول صلى الله عليه وسلم أبا هريرة " يا أبا هريرة أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا، وأعمل بفرائض الله تكن عابدا، وأرض بقسم الله تكن زاهدا". وشملت خطبة حجة الوداع على كم هائل من الوصايا جعلها الرسول رتيمة في خنصر المسلمين وخلاصة الدين الذي ارتضاه الله للناس دستورا لمعاملاتهم الحياتية وتعاملاتهم الاجتماعية.

واتسم أدب الوصايا بما عرف عليه البيان النبوي من أسلوب خاص اتسم به منطق الرسول كجودة التركيب وحسن التعبير وبلاغة المعنى وتركيز الدلالة واختصار الجملة وجمال التصوير والتمثيل وبديع وقع الموسيقى وتجنب التكلف

واعتبر الصحابة الوصية رسالة أرادها الله ورسوله لتختصر وتيسر توصيل الدين للناس ورأوا ان حسن تحقيق غاية الصحبة وواجباتها تبليغ تلك الوصايا المسموعة من رسول الله إلى عموم الأمة وجموع المسلمين كلما سمحت الفرصة لذلك فهذا الصديق يوصي أسامة بن زيد وجند الفتوح يقول: " يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرا مثمرا ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا

* سورة مريم .

** سورة الشورى.

بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا ،اندفعوا باسم الله أفناكم الله بالطعن والطاعون" .

وانشغلت الوصية في هذا العصر بتوجيهات من قيادات الحكم إلى ممثليهم في تسيير أمور الفتح كوصايا أبو بكر لخالد بن الوليد حين ركب لمجابهة أهل الردة ووصايا عمر بن الخطاب لجيوش الفتح شرقا وغربا ووصية يزيد بن سفيان لخالد حين وجهه لفتح الشام وغيرها من الوصايا المراد منها تعريف العدو بأخلاق الإسلام والمسلمين.

وواصلت الوصية في عصر بني أمية على نسق ما سارت عليه في توجيه القادة والجند أساليب التعامل وتقديم صورة ناصعة البيضاء عن سماحة الإسلام وأهله كوصية عبد الملك بن مروان لأمير سيره إلى الروم، ووصية معاوية لابنه يزيد كما عرفت صور أخرى للوصية كتوجيه الخلفاء وصايا موجهة إلى مؤدبي أبنائهم ومنها ما وصى به عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده قال فيها: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك إصلاح نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه ومن الحديث أشرفه، و لا تخرجهم منو علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكام وأخلاق الأدباء وجنبهم محادثة النساء، وكن لهم الطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ولا تتكل على عذري فإني قد اتكلت على كفايتك، وزد في تأديبهم أزدك في بري إن شاء الله» [1]

(1)الجاحظ، البيان والتبيين، م1، مر: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003، ص47.

وقد اتسمت الوصية بقوة البلاغة والبيان والاقتباس من أساليب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ودقة التصوير واستعمال الألفاظ القوية الموحية

الفرق بين الخطبة والوصية

عرف الدارسون توافقا واشتراكا بين الخطبة والوصية في ملامح وعناصر كادت تجعل منهما غرضا موحدا فهما يشتركان في «توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح وردعه عن الضلال والفساد، إلا أنهما تختلفان من حيث المتلقي ، فالخطبة تكون على ملإ من الناس حتى تعم الفائدة، على حين نجد الوصية غالبا ما توجه إلى إنسان معين و لا حاجة لجمهور بجانب الموصى إليه، في الوقت ذاته لا يمنع من وجود بعض الناس إذا دعت الضرورة، وربما تكون هذه الوصية لشخص آخر في زمن آخر إذا توافقت المناسبة» [1].

(1).هاشم صالح مناع، النثر الفني في العصر الجاعلي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 107